لحظة صمت

بقلم : لبابة محمد أبو صالح
سورية

إلى رجل لم أعرف منه إلا شعرًا أبيض .. يدين انكمش جلدهما .. عينين زرقاوين قديمتين تخفي فيهما كثير حكايات .. كان يلتقط أنفاسه بصعوبة لمدة أربع سنوات .. حتى لفظ النفس الأخير .. و تعالت بعدها صرخة خالتي عليه .. (مات فكيف أعيش بعده ؟!).

الموت .. ماهو ؟

انكسار .. تمزق ..

نعم هما هاتان الحالتان اللتان تنقضان على المرء حين يسمع بأن أحدهم قد فارق الحياة ..

فارق الحياة !!! ..

لم يعد فيها .. لن نراه .. لن نسمع صوته .. لن نقف أمام عينيه نتأمل لون الحزن أو الفرح فيهما ..

انتهى ..توقف .. و زال ..

حتى البشر .. الأرض .. لم تعد لهم به حاجة ..

أهله سيأخذونه إلى مكان كل من فيه مثله .. لا يتنفسون .. ولا يعرفون للحياة وجهًا !!

سيحفرون له حفرة في الأرض .. سيضعونه هناك .. ويهيلون التراب على جسده ..ليصبح بعد سنة أو سنتين .. مجرد رفات ..

حتى لحظات الصمت التي استحقها حال الفقد .. انتهت .. و الدموع التي ذُرفت .. لم تعد تسيل !!

كل شيء ينتهي بسرعة .. لكنه انكسار .. تمزق ..

تنكسر الحياة .. كأنك جئت إلى مساحة خضراء فاقتلعت منها قطعة كبيرة .. لتُحدث حفرة عميقة .. أتدري ما مصير العابرين بهذه الحفرة ؟!

يتنحون عنها لئلا يسقطوا فيها .. يُغمضون أعينهم عن شكلها .. أو يقفون فيتأملونها .. و للتأمل طقوس أسئلةٍ كثيرةٍ .. و متاهاتِ أجوبة !! .. و كثيرِ تلطف !!

انكسار ..تمزق ..

كيف يستطيع الإنسان أن يتخيل نفسه في حفرة معتمة ؟!..

ربما يستهين بها .. إن كان يضع نفسه ذلك الموضع ..

لكنه يشعر بالكآبة .. لا يكف عن البكاء .. حين يفقد عزيزًا عليه .. يضعه بيديه هناك ..ويعود إلى منزل خاويًا منه !!

هنا .. عاصفة من بكاء تقتحم الزمن ..و لا أدري .. أي شمس تنهيها !!

الليل قاسٍ حين نقضيه بعد أن رمينا بأجساد من نحب في باطنِ الأرض !!

قاس جدًا .. صقيع لا جهة تسوقه .. و لا أغطية تكفي لتطرد رجفة الفرقة .. رجفةً لا معبر دافئا تمر منه لتخرج من ذلك الليل .. و تلك اللحظات ..

نعم .. ستشرق الشمس في النهار .. ستزقزق العصافير ..

لعل العين ستجف دموعها بعض الشيء .. الغُصة فقط هي ما يكوي الحنجرة ..

ضيق .. خواء .. و انكسار ..

الحياة تمشي بعفوية وهدوء ..

الشرخ موجود هنا فقط .. حيث الحفرة و الخواء ..

بل هناك من يضحك الآن ..

لا عجب في دنيا كبيرة ..كبيرة .. بحجم دمعة .. ومالحة أيضًا بملوحة تلك الدمعة ..

أواه ..الموت شيء عجيب ..

أعجب ما فيه أننا مهما تأهبنا لأن ينتشل من بيننا أحباءنا .. مهما تصلبنا من كونه لازما من لوازم الحياة وأن علينا احتماله .. حتى ولو كان الذي سيموت مريضًا أشبه بميت .. تبقى كلمة (مات فلان) تهز عرش الحياة .. تطعن في الصميم .. و تمزق بأنين .. و لا تشبه إلا التكسر ..

جرة من فخار .. سقطت على أرض من حصى متوسطة الحجم .. تكسرت قطعًا صغيرة و كبيرة ..

و استكانت أجزاؤها بين الحصى .. و يمر الزمن ، يمر عليها عابر فلا يُفرِّق بينها و بين الحصى ..

تتغير .. و لا يشعر بها أحد ..

مَن يذكر أنها كانت جرة من فخار تحبس الماء العذب و تحفظ فيه برودته !!

لا أحد .. تمامًا كما يموت الناس .. و نتعذب بعد أن نتركهم في حفر التراب ..

غير أننا بعد زمن ننسى أنهم في وحشة الحفرة ..

لعلنا نتجاوز الحفرة إلى حيث تسكن أرواحهم ..

حيث نأمل أن تكون الجنة سكناهم !! ■